رسالة ودموع

-"من فضلك أيها السيد ألا تدلني على شارع بغداد؟" وأجـاب الـشرطي بلهجـة المتشوق لمثل تلك المساعدة.

- "أوه طبعاً يا آنسة.. على جانب الرصيف الآخر يقف أوتوبيس القصاع.. بل ها هو قادم.. أسرعي قبل أن يفوتك.. السائق يدلك" وعلا صوته "هيه قف قف!"

وفر الأوتوبيس قبل أن تمسكه الفتاة، وتذكرت أنها لا تملك في حقيبتها ثمن تذكرة فحمدت تأخرها وهروبه، ثم استأنفت مسيرها بخطاها الثابتة على غير هدى ولكن بوثوق من سيكتشف الشارع والبحيرات مهما لفّ وغمض الطريـق.. فـالتجوال للغريب المفلس العاطل عن العمل فيه لذة تجلو عن القلب صدأ الهموم.

-"آنسة يا آنسة" وإذا الشرطي يصحبه شاب خيل إليها أنها رأت وجهه قبل اليوم.

-"خشينا عليك الضياع والسيد" وأشار إلى الشاب في طريقه إلى شارع بغداد، فهل تجدين مانعاً في أن يرافقك؟"

-"كلا وشكراً لكما"

وهتف الاثنان مبتسمين "واجبنا يا آنسة" وأردف الشرطي "لو لم أكن فـي عجالـة لرافقتك بنفسي فمعذرة وخاطركم"

-"مع السلامة" والتفتت إلى الشاب مبتسمة" ولو لم أكن غريبة هنا نكـرة لأبيـت مرافقة أحد، فألسنة السوء طويلة بيننا مش صحيح؟"

وتفرس فيها الشاب "يا إلهي أين التقى بهذه الفتاة؟" – "الآنسة فلسطينية! إذن نحـن أخوان في الوطن" –"وفي الشقاء".

وتنهد الشاب طويلاً، وكست وجهه غمامة قاتمة" صدقت يا آنسة من كان يظـن أننا نخسر المعركة ونصفي بره؟" وهدرت الفتاة "ألا ان المعركة لم تنته بعد.. نحن على بركان يغلي ولو صمتت المدافع.. والويل الويل للعرب إن تناسوا فلـسطينهم الحبيبة، ورضوا بالهزيمة وانغمسوا فيما ألفوه من حزازات وتفكك.

-" أي فلسطين! الناس في شغل بالرغيف عن الوطن يا آنسة.. انتهـت العاصـفة وتناثرنا كأوراق الخريف.. أفشتيت يلم ورماد يتأجج.. ذهبت ريحنـا واشـتركنا حكومات وشعوباً في نحر أنفسنا.."

-" إن بقي في شباب العروبة دم.. فلا عين تنام ولا نفس تيـأس حتـى تـسترد فلسطين، ولو بعد مائة عام!..

واستدركت الفتاة نفسها وهي دهشة أن انطلقت بجرأة وحماس مع شاب لا تعرف حتى اسمه.

-" عفواً أيها السيد.. لعل انفعالي أني ذاهبة اليوم أستجدي غوث فلسطين بعـد أن نفذ ما معنا. إنني أقارن بين حالنا في الماضي وما حلّ بنا اليوم..

وهمس الشاب لنفسه "كأنك تعرفها منذ زمن بعيد أين التقيتها؟ أين سمعت صوتها؟ ويحك يا هاني أيهتز قلبك بعد دنيا؟"

-" هل لي الشرف بمعرفة اسم الآنسة؟"

-" فتاة من فلسطين وكفى".

-" أما أنا فلن أجعل اسمي سراً.. هاني المفتـي.. مـن القـدس كنـت موظفـاً بالسكرتارية العامة لحكومة فلسطين.. أما اليوم "فيا ربي كما خلقتني على أبـواب مكتب تحرير فلسطين"

ويتضاحك الشاب، ولكن فوجئ بما لم يكن يتوقع.. شحوب كسا وجه الفتاة وتوقفت هنيهة عن المسير –" بالسكرتارية؟ أكنت تعرف دنيا-"

-"دنيا عواد! التي دفنت تحت أنقاض فندق الملك داوود!"

-" دنيا عواد نعم"

وزفر الشاب زفرة حرى "ما علاقتك بها يا آنسة؟"

-" صديقتي.. أعز صديقاتي.. قبل وفاتها بيوم أخبرتني بأنها تنوي الإستقالة مـن عملها لسبب لم أدركه وحاولت إقناعها بالعدول فأصرت.. وفي اليوم التـالي.. آه ليتها لم تذهب.. في اليوم التالي كانت إحدى ضحايا غدر السفكة الأنـذال فـي "فندق الملك داوود"

كل جارحة من جوارح الفتاة كانت تهتز واحتقن وجهها فجأة، ومسحت من عينيها قطرات راحت تجففها لائمة نفسها "ما يقول المارة عن طفلة كبيـرة تبكـي فـي الطريق؟"

أما الشاب فكان يحس بصدره ينفجر ولكن تمالك نفسه:

-" دنيا كانت لي أنا الآخر أعز من صديقة.. إنني مدين لها بحياتي اليوم بغير أن تدري.. ولكنها حياة لا أغبط عليها، وقد ماتت بهجتها..
-" أخبرني كيف كان ذلك يا سيد هاني.. إنني متلهفة لسماعك"
-" نعم أحدثك ففي الحديث راحة للمفؤود.. إنما بعد أن ننتهي مـن عملنـا فلقـد وصلنا مكتب تحرير فلسطين"

* * *

-" ماذا فعلت بي وبنفسك يا صديقي؟ هذه الرسالة! أوه أعز عليك أن تبقى صامتاً! أأبيت إلا أن تفضح عواطفك؟ أحسبتني لم أقرأ كل شيء في عينيـك! "وصـمتت فهتف الشاب وقد رفرفت نبضات قلبه قلقاً:
-" دنيا! ما حدث؟ أأخطأت لأني أخبرتك بما لم أعد أقوى على كتمانه في فؤادي؟ كان في صوته العاتب المنفعل ما هز الفتاة فأجفلت واصطبغ وجهها خجلاً.. غير أنها أمعنت في صمتها وإطراقها ولم تجب..
وتناولها الشاب بنظرة فاحصة متمنياً لو أن في مقدوره الوصول إلى كنهها البعيد ليعلم ما يحويه قلب فتاته وما يشعر به تلك اللحظة واسترسل في قوله سـائلاً –
"أمن الجريمة أن يكتب رجل لفتاة رسالة يضمنها أدق مشاعره وأسمى عواطفـه نحوها!.. أخبريني لأعلم، لأكون على حذر مرة أخرى فلا أحاول إزعـاج أعـز مخلوقة عندي في الوجود..
ورفعت إليه وجهها متحاشية أن تتلاقى نظراتهما فيكتشف ما يعتلج في قلبها مـن مشاعر.
-" كلا يا هاني لا تصدق أن فتاة على الأرض تزعجها رسالة كرسالتك تنبض كل كلمة من كلماتها بالصدق والصراحة والإخلاص.. أما في حالنا، نعم فـي حالنـا فالأمر مختلف.. لقد حملت إلي صنوف العذاب إذ قرأتها.. لأنها فاتحـة لعـذاب سيطول بيننا.. لم أججت ناراً أنت تعلم أن لا حق لنا في إضرامها؟ أما حاولت أن تحسب حساب الهوة التي تفصل بيننا وسهام الشرائع والقوانين والعادات المصوبة نحونا فيما لو غامرنا وهزئنا بالهوة والسهام؟

وشحب وجه الشاب ولكن سرعان ما عادت إليه رباطة جأشه وقطّـب مـا بـين حاجبيه وأجاب في لهجة غاضبة:

-" تحاولين الجريمة والآن تتنصلين منها! وتغمسين يديك في إناء الماء كما فعـل بيلاطس؟ يا لك من ماكرة لو لم أكن من ضحايا الحياة وقسوتها لكنت ضحيتك من حيث تعبثين وتلهين".

وسألته الفتاة ببرود وهي تخفي اضطرابها: -"هلا برهنت وأوضحت يا صديقي"

واقترب الشاب بمقعده نحوها:

-" أنسيت بأنك قلت لي يوماً "إن الحياة في الواقع ألذ وأشهى من الحياة في الخيال بكثير. ما كنت تعنين بهذا القول يا دنيا؟ ألا ترين أنك ثعلبة خبيثة؟"

وضحكت الفتاة وقد سري عنها:

"ويحك يا صديقي.. لقد أخطأت قصدي، وفهمت قولي على غير حقيقته.. ولكن لا بأس أغفر هذا لك أيضاً، فلست أول إنسان يؤول الأقوال ويفسرها كما يحلو له"

" آلمني يا صديقي أنني أراك غارقاً في الوهم حتى أذنيك وأنك لا تجد في غيـره مفتاح السعادة" إنني معك بأن الخيال والوهم أجدى سلاح مع الشباب. إن الـشباب في رأيي نضال وابتسامة " لم أكن أعلم حينذاك بآلامك التي تعانيها والتي تحبـب لك صراع الواقع بالوهم، وعندما خيل إلي أنني أحسن وأدرك سر عذاب روحـك بدا لي أنه لا يعدو عن إسراف في الوهم يا صديقي تدفع ثمنه غالياً من طمأنينـة نفسك.

إنك ضحية لصراع عنيف بين غرائز الإنسان الطبيعية وبين رغبته فـي الـسمو ليرقص مع الأفلاك، وخرجت من هذا الصراع غير راضٍ عن نفـسك فقـسوت عليها منتقداً حاقداً مسرفاً في الانتقاد والحقد متشفياً بمنظرها تتلوى بين يديك مـن فرط الألم. فآلمني ما تعانيه نفس نبيلة حية الضمير بين براثن فلتك..

أقول ذلك لأنني أضن بصديقة روحي تلاقي ما تلاقيه، لا لشيء إلاّ لأن مربيهـا يمعن في أوهام تبخس له قدرها وتشوه حقيقتها.. وهذا ما دفعني لأقول مـا قلـت فأبيت إلاّ أن تحمل قولي على غير ما عنيت.. أما إن أردت أن تكون كلماتي أكثر جلاء فأنا أضيف بأن الحياة في الواقع أفضل من الخيال، إذا لم تتعارض مع مثل

الإنسان وواجبات الشرف وأنظمة الشرائع والقوانين، ولكنها ليست ألذّ وأشـهى. فالخيال هو ما يجعلها أعظم قيمة وأبهى رونقاً وأدنى للخلود..

وتململ الشاب في مقعده وأشعل لفافة أخذ ينفثها بغير انقطاع قبل أن يقول:

-" إذن لم تكوني لتعني ما تقولين؟"

وشاب لهجته رنة غضب وسخرية قاتلة:

-" إذن كنت تتلاعبين بأزهار البستان جميعها تقطفين زهرة من هنا وزهرة مـن هناك كما يحلو لك.. تعبثين بالقلوب وترمينها بين أشواك الخيبة تشنّف أسـماعك أنينها وآهاتها" ولفت نظره فجأة منديلاً ملوناً جديـداً تلـف بـه شـعرها وأردف بمرارة:

-" إذن فلم أكن أنا بالنسبة إليك إلاّ كهذا المنديل على رأسك سريعاً يبلى ويـستبدل بغيره، وإذن فهذه الساعة الذهبية في معصمك خير مني وأبقى!"

شعور لا عهد للفتاة به طغى على إحساسها، إنها واجمة ذاهلة لا تصدق أذنيهـا.. ولم تزد إلى أن حدجته بنظرة باردة طويلة..

ولم يسع الشاب وهو ينظر إلى تعابير الألم وقد ارتسمت على وجه الفتـاة إلا أن يشعر بالندم لما فاه به وتمنى لو يستعيد كلماته بأي ثمن.. وانتظر قلقـاً مـستعداً لاحتمال أية ضربة قاسية منها على أن تلوذ بجانب الصمت.

وتنهدت الفتاة فسرت في بدن الشاب رعدة خفيفة وساءلتها عيناه عما بها:

-" ما بي! أتعلم أية طعنة نجلاء صوبتها إلى قلبي؟" وبسرعة قذفها بعتابها قائلاً:

-" وأنت هل تعلمين أية طعنة نجلاء صوبتها إلى قلبي؟"

-" ولكن إلي يد في الأمر؟ ما ذنبي إن كنا على غير دين واحد تفصل بينا جبـال من الأعراف.. أتحسبني لا أذوب ألماً حتى تنحرني بتجريحك القاسي؟.

-" إذن معنى هذا أنك تحبينني فما يمنعك من أن تستجيبي إلى نداء قلبي فنعـيش كأسعد زوجين؟"

وتجيب الفتاة بحسرة:

-" يا صديقي أنت تخطئ إذ تضع الحب فوق كل اعتبار.. إن في الحياة من القيود مالا قبل لنا بتحطيمها، ولو فعلنا لحولت من نعيمنا جحيماً.. وأذاقتنا مر العـذاب.

ولا تحسبني أثور على هذه القيود بل أباركها فلولاها لأصبح الحب مبتذلاً، وهـي هي التي تسمو به عن الحيوانية وتضفي عليه هالات من النور والقدسية".

-" ولكنك فتاة أعقل من أن تغرقي بين الأديان وأجرأ من أن تحول قيود بينك وبين من تحبين إن كنت حقاً صادقة العاطفة".

كان في تحديه ماهراً فلم تجد الفتاة من الكلمات ما ترد به عليه فـوراً فأطرقـت وراحت في تفكير عميق أية مشاعر كانت تهز المسكينة وأي صراع كانت تعانيه؟ إن ما يقرب من عام من صداقة اشتعلت فيها النار غيـر سـهل إخمادهـا.. وإن مقاومة سلطة الدين غير محمودة العواقب.. إنها تسئ بذلك أبلغ الإساءة إلى أهلها وذويها، وإنها أشرف من أن ترضى بسببها أن يصبحوا موضع الغمـز واللمـز وشماتة الأعداء وهي التي يثقون بها ويعتبرونها المثل الأعلـى للفتـاة الرزينـة العاقلة. أواه ربما قتل الحزن والمرارة والديها.. وشعرت كأن يداً فولاذية تعصر فؤادها.. أتكافئهما في شيخوختهما بأن تسرع بهما الخطى إلى القبر حسرة وكمدا؟ وإخوتها أية قدوة سيئة ترسمها لهم بسلوك يعتبر مشيناً فينبذونها نبذ النواة، وتحرم حبهم وحنانهم إلى الأبد. كلا هذا كثير إنها لأضعف من أن تطيق احتمال الفروض فكيف بالواقع!

وحان منها التفاتة إلى الشاب.. كان ينظر إليها كمتهم ينتظر حكم قاضـيه، وقـد وثبت أشواق قلبه إلى عينيه فأبرقتا بوهج غريب..

وأحست كأنما لم يخلق الواحد منهما للآخر، مثالان للإنسجام العاطفي والفكـري.. ولم تفهم السر في أن واجبها يحتم عليها أن تقتلع نفسها منه. وشعرت بموجـات متتالية من القشعريرة تجتاحها، وهي تختلس إليه نظرة فترى عينيه تلتهبان وقـد خضلتا بالدمع.

وطفر الدم إلى وجنتيها، وأشاحت بوجهها عنه، فشعرت به يقترب منها ويمـسك بيدها:

-" دنيا أنت راضية، هكذا يحدثني قلبي.. نعم راضية راضية"

واشتد خفقان قلبها وصاحت بها هواتف من أعماقها متناقضة الحب! الهناء! الدين! الشرف! كلا إنك لا تخالفين الطبيعة ولا تسيئين إليها إن أحببت رجلاً واحد ولـو

على غير مذهبك! هذه قيود زالت خلقها المجتمع لأسباب ليس هنـاك مـا يبـرر بقاءها حتى اليوم..

يا قلبي لنفسك تختلق المعاذير ولكن لن يبررها لك المجتمع ولن يغفر لـك، ولـن تهنأ بالحياة وقد تمردت عليه. لنفرض أنني أطعتك وهجرت ملاذي الأول، فهـل ترضاني عائلته عضواً فيها؟ وهي التي تريد له زوجة ابنة عمـه كمـا أخبرنـي يوماً.. سأكون بينها غريبة محاطة بالأعداء.. أي أنني أضع كل مـا أملـك مـن زجاج في سلة واحدة هي حبه، فما يدريني أنها لا تقع ويتهشم ما فيها، أو يسرقها مني سارق؟؟ ما يدريني أن الحياة لن تقسو فتختلسه مني، أو أن أفتقد قلبه فأجـده قد فتر أو سلبته مني امرأة أخرى؟ ما أفعل حينذاك وقد زاد حملي أطفالاً وفقـدت النصير؟.

نحن نطلب في الحب السعادة والطمأنينة فهل في هذا الحب ما يبقى عليهما؟

وهمس الشاب "دنيا ما بك؟ لا تطيلي عذابي يا حبيبتي" حبيبتي! لأول مرة تـسمع اللفظة الحبيبة إلى الأسماع فيتوهج وجهها، وابتسمت وغريب أن تبتسم، وفتاهـا يعصف به القلق. ولكن، ما أغرب تبدل القلوب، لقد شاقها في تلـك اللحظـة أن تطيل عذابه.

-" ألا ترى أن عذاباً لذيذاً خير من لذة شائكة؟.

فصاح بها:

-" ويحك هبيني اللذة بكل أشواكها فهي أحب إلي من هذا الموت اللذيذ"

وابتسمت الفتاة مداعبة:

-" كلا إنك تبالغ في وصف عواطفك، ولو أطعتك لكان لك غير هذا الرأي بعـد شهرين ألم تسمع إلى بيرون إذ يقول "خير للرجل أن يموت في سبيل المرأة التي أحبها من أن يعيش معها؟"

لم يكن الشاب في حالة تحبب له هذا الهزل فثار غيظه وحـاول أن ينفجـر فـي كلمات تسيل دموعها ولكنه كظم ما به وقال بعتاب حزين:

-" أنت تضحكين وأنا أبكي أنت تهزلين وأنا أجد" ولم يقو على الكبـت فـأردف "إليك عني.. أحمق من تستذله امرأة.. كفاك ترقصين على دنياي فاذهبي وابتغـي

غيري" رحمة بنا أنك لست الحواء الوحيدة على الأرض.. الرجل يستلطف كـل امرأة ذات أنوثة وهؤلاء تعج بهن الأرض وشيء من التفاهم والإتحاد الروحـي يولد الحب وصمت فجأة.. إنه ليكذب على نفسه الواقع أن أخرى لن تفتنـه كمـا فتنته دنيا برفعة نفسها وروعة حسنها.. إن إعجابه بها مزدوجاً، والقـرب منهـا يوحي إليه أعذب المسرات. أما دنيا فلقد غاص قلبها وغاضت الدماء في وجنتيها، وحملت نفسها إلى الباب ثم التفتت فجأة وهي تقول "سأفعل ما يريحك ويريحني" وقام عن مقعده كالمجنون ووقف سدا بينها وبين الباب:

-" ما تعنين يا دنيا، عفواً إن كنت أغلاظت القول"

-" هذا قراري منذ البارحة.. جئت اليوم لوداعك وها أنا ذاهبة إلى مستر.. كـي أقدم استقالتي إنني بحاجة إلى تغيير الهواء وسأستضيف عمتي في يافـا بـضعة أشهر"

-" أمعني في هربك.. اذهبي إلى أقصى الأرض فأنت بالرغم عنك أبداً معي" وابتسمت وهي تقول –" الله نفسه لا يدين أوهام البشر ولو فعل لأصـلى بالنـار الجميع فهل تراني أدينك؟

وإذ نفذت الحيل في إقناعها وأدرك الشاب إصرارها على السفر رجاها أن يمضيا النهار سويا فقالت:

-" كما تريد تبلي نعل حذائك في البحث معي عن هدية لطيفـة لأختـى سـلوى بمناسبة عيد ميلادها.. ونتغدى في سميراميس ثم نحضر فيلم "رسـالة ودمـوع" أيرضيك هذا البرنامج؟"

وذهب هاني ليحضر سيارة.. انفجار يصم الآذان دخان يعمي العيون وانهار جناح من مبنى فندق الملك داوود، وتناثرت شظايا الزجاج عليه، وهوى جريحاً علـى الأرض فاقد الوعي!

* * *

....

نشج الشاب واختنق في حلقه الزحير، أما الفتاة فكانت شاخصة كالتمثـال وكأنهـا تحادث نفسها:

- فهمت فهمت الآن سر نبشها قصة الأديان ومناقشاتها المـستمرة مـع والـدي ووجومها إزاء صلابته، وفهمت سر دموعها إذ أفاجئها في خلوتها..

- دنيا وأنت تطعنين قلبك لم تنسي هديتك لسلوى؟ أي عيد ميلاد أمضته أختك وقد رجع المساء ولم ترجعي آه يا دنيا لو تعلمين!

وحدق الشاب في وجه الفتاة:

-" إذن أنت – عرفت أين رأيتك من قبل، في نظرات دنيـا وابتـسامتها ورنـة صوتها.. عرفت أين رأيتك يا سلوى عواد!

* * *